

المصادر الحضارية للرمز في الشعر الجاهلي

Civilized sources of the symbol in pre-Islamic poetry

محمد يزيد بن عجمية^{1*}، أ د محمد بن سعيد²

¹ جامعة أحمد بن بلة وهران 1 الجزائر ، benadjemia.mohammed@edu.univ-oran1.dz

² جامعة أحمد بن بلة وهران 1 الجزائر ، bensaid-m@hotmail.com

مختبر السيميائيات وتحليل الخطابات

تاريخ الاستلام: 2023-01-09 تاريخ القبول: 2023-02-10 تاريخ النشر: 2023-10-08

ملخص البحث

للرمز دور كبير في نقل معرفة الأمم السابقة باختصار ؛ حيث بذل النقاد جهداً كبيراً في الماضي والحاضر في جميع الأمم لتحديد مفهومه وترجمته وتصنيفه و مظهره ، وكانت دراساتهم واسعة في الكتب والأدب بعد أن كانت منشورة في كتب القدماء لعفويتهم في الدراسة .
يتميز الرمز بمجموعة من الخصائص لأنه كالعقيدة يشترك فيه جميع الشعوب ، وله مصادر تتعلق بالفكر لدى الأمم القديمة بما في ذلك الطبيعة والدين والتراث والأساطير . وما يتعلق بالعلوم مثل الزراعة والصناعة والطب والفلك وغيرها

Abstract:

The Symbol has a big role in the transfer of knowledge of previous nations in a nutshell; the critics exerted a great effort in the past and present in all nations to define its concept, translate it, classify it and show its manifestation, their studies were extensive in books and

* المؤلف المرسل: ط. محمد يزيد بن عجمية.

littérature after it was scattered in the books of ancients for their spontaneity in studying.

.The symbol as common belief among all peoples especially religious ones; is distinguished the characteristic of inheritance and mobility and it has sources related to the thinking of Primatice peoples including nature, religion, heritage and legend. and what is related to science such as agriculture, industry, medicine, astronomy and others.....

الكلمات المفتاحية : الشعر ، الرمز ، العصر الجاهلي ، الأسطورة ، الطبيعة ، البيئة .

مقدمة:

لقد كان الرمز في الشعر الجاهلي موضوعا ملحا ، لاعتبارات عدة، غير أنني وجدت الموضوع يكاد يعاني التحمة من الدراسات التي طرقت فدرست نوعا من أنواعه في الشعر الجاهلي أو درسته في شعر شاعر من الشعراء، وفي هذه الحالة طرح الباحثون عدة أسئلة مهمة مما أثير وما يثار حول الرمز والشعر الجاهلي، لعل أهمها هل عرف الشاعر الجاهلي الرمز الشعري؟، وهل توفر البيئة الجاهلية مصادر للرموز كما هو الحال عند الشاعر المعاصر؟ وهل عرف الجاهلي الحضارة ومظاهرها ليتاح له أن يستقي منها رموزا؟

لقد أضحي الرمز مظهرا من مظاهر الإبداع، وأتاح للمتلقي أن يختبر قدراته في فهم الرموز، ودلالاتها، إذ لم يكن استعمالها إلا نوعا من أنواع الأقنعة للتعبير عن موقف ، أو فكرة، أو رأي، لذلك كان إثبات النزعة الرمزية في الشعر الجاهلي، بمثابة نفي السداجة عن الجاهلي، وإثبات أن العربي عرف الحضارة ومظاهرها.

نحاول في هذه الدراسة الوقوف على مصادر الرمز عامة، ومن أين يستقي الشعراء رموزهم، ثم عرجنا على المظاهر الحضارية و الاقتصادية منها كالزراعة والصناعة والمعرفة كالطب والفلك والتي أتاحت للشاعر الجاهلي مجموعة من الرموز التي عبر من خلالها على الرخاء والنماء، والإتقان

والحذق، وغيرها، وقد ساعدنا المنهج الوصفي في ذلك من خلال ربط مظاهر الحضارة بالشعر الجاهلي الذي أوردتها، واتخذها رموزاً تعبر من أحاسيسه ورؤاه، ومواقفه.

1- مفهوم الرمز:

1-1- الرمز لغة :

في البداية لابد من الوقوف على الدلالة اللغوية للرمز عند العرب وفيما استعمل عندهم، ذلك أن المعنى الاصطلاحي المكتسب لأي لفظ لا يعدم العلاقة مع المعنى اللغوي، لأن الثاني ليس إلا تطور عن الأول أو امتداد له وقد ينبثق المعنى الاصطلاحي عن مجاز لغوي في إحياء تخلقه تلك الصورة المتداعية وتلك الانحرافات الحاصلة على مستوى اللغة .

يقول ابن منظور : « الرَّمْزُ : تصويت خفي باللسان كالهمس، ويكون تحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إبانة بصوت إنما هو إشارة بالشفيتين وقيل : الرَّمْزُ إشارة وإيماء بالعينين والحاجبين والشفتين والفم، والرمز في اللغة كل ما أشرت إليه مما يبان بلفظ بأي شيء أشرت إليه بيد أو بعين، ورمزَ يرمز، ورمزَ يرمز رمزاً ورمزته المرأة بعينها، ترمزه رمزاً: غمزته وجارية رمزة: غمّازة والرمز والرمز في اللغة: الحزم والتحرُّك»⁽¹⁾.

فهو كلام غير صائت، أو إيماء وإشارة للتعبير خفية عما يراد، أو عما يختلج، وهو كل تعبير مخفي لا يريد صاحبه أن يعرف أنه صاحب الأمر.

1-2- الرمز اصطلاحاً:

تختلف المفاهيم والدلالات الاصطلاحية تبعاً لاختلاف المنطلقات المعرفية والفلسفية وحتى العقدية للمشتغلين بالمصطلح، والدارس دائماً يجد نفسه أمام كم هائل من الدلالات الاصطلاحية

للفظ الواحد، فيصبح رهين ما يعرف باشكالية المصطلح، ونحن لن نسرد كل المفاهيم التي أوردها الدارسون للمصطلح، وإنما سنورد المفاهيم التي تنسجم ورؤيتنا أو ما يمكن أن يكون رمزا في الشعر الجاهلي.

الرمز عند القدماء يتصل بالإشارة التي تساعد على البيان، وتقريب الدلالة كما يقول الجاحظ: «وفي كلام العرب ما يدلُّ على أنَّ الإشارة أو الرمز طريق من طرق الدلالة، تصحب الكلام فتساعده على البيان والإفصاح لأن حسن الإشارة باليد أو الرأس من تمام حسن البيان»⁽²⁾.

والرمز عند المحدثين أيضا يتعلق بالدلالة، والبيان فهو يتداخل مع البلاغة وأساليبها، غير أنه أكثر تكثيفا منها، فهو «الذي قلّت وسائله مع خفاء في اللزوم بل تعريض، نحو فلان عريض القفا، أو عريض الوسادة، فهي كناية عن بلاذته وبلاهته»⁽³⁾.

2- مصادر الرمز :

نقصد بمصادر الرمز المنابع التي ينهل منها الشاعر رموزه، والمراجع التي يستقي منها تراكيبها وهيئاتها، والتي لا بد أن يكون قد تأثر بها نتيجة معاشتها أو الاطلاع عليها، فصارت معينا خصباً يرجع إذا لم تسعفه المعاني أو هو أراد الإحالة عليها فالشاعر مهما تفرد في إبداعه ، ابن محيطه وزمانه وبيئته، ومجموعته الثقافية، يعترف منها أفكاره ومعانيه، وينحط لغته ويقتنص رموزه ، فخبرته وتجاربه في الحياة، تشكل مخزوننا ثقافيا مليئا بالمعاني والصور والرموز التي ينطلق منها الشاعر في صوغ نتاجه الأدبي، ويصدر عنها في التخلص من ضائقته الشعرية، فالذي " يحدث أن الشاعر يستثير هذه المادة في الهيئة التي يختارها ، وتعبر عن نفسيته من خلال استدعائها من مخزون ذاكرته بحيث تشكل هذه في النهاية معادلا مساوقا لتجربته الشعرية"⁴.

ومن أهم المصادر التي يستقي الشاعر منها رموزه نجد:

2-1- الأسطورة:

تعد الأسطورة من أهم المصادر التي يستعين بها الشاعر في صياغة رموزه، بل استخدم الرموز الأسطورية كأداة للتعبير، فهي تمثل مكوناً مهماً في تاريخ الحضارات الإنسانية المتعاقبة في تاريخ الفكر البشري منذ تشكيلاته الأولى. والأسطورة منجز جماعي محكي يختزل المعرفة والاعتقاد والذوق لمجموعة بشرية، فهي حكاية ذات طابع أنثروبولوجي.

إن الطابع الحكائي للأسطورة يجعل علاقتها وطيدة بالأدب "فكم كانت مصدر إلهام للأدباء...وهي في ذلك إعادة صياغة جديدة للأساطير القديمة، وتعتبر نتاجاً بدائياً يرتبط بمراحل قبل التاريخ، إنها عامل أساسي في حياة الإنسان في كل عصر، فإذا نظرنا إلى الرموز السابقة التي استخدمها الأدباء المعاصرون، يتبين لنا أن معظم عناصرها يرتبط بشخص أسطورية، كتموز وعشتار وسيزيف والسندباد...إلخ"5.

2-2- الطبيعة:

لقد مثلت الطبيعة دائماً مصدر إلهام الشعراء والفنانين ومعينهم الذي لا ينضب فهي فضاء خصب للصور والتمثيلات والرموز، إنها نبع ثري ومتجدد، بل هي دافع الإبداع وملجأ الشعراء والفنانين، لقد ارتبطت الطبيعة دوماً بالشعر والشعراء، فهي مصدر المعاني والرموز، وهي الفسحة التي تهبه المضامين والأوزان، والصفاء الذي يمكنه من الإبداع، هذا دون أن ننسى محاولة محاكاة الطبيعة في ألوانها وأصواتها وجمالها في الشعر والفن بصفة عامة.

فراح الشاعر الجاهلي يصف و يصور كل ما رات عينه من مشاهد مختلفة و يتعامل معها بطريقة جعلته يضفي عليها صوراً من الخيلة و المعتقدات التي ارتقت بها إلى حد العبارة ، فوصف

الحيوانات التي ألفها فاستخلص عبرا و دروسا من سلوكياتها في مواجهة الحياة و التعامل مع الآخرين و جعلها رموزا ليصف الآخر بها لتوافق طباع الموصوف مع طباع الحيوان المخزنة في ذاكرته ، فألبسها لباسا شعريا راقيا امتاز بالثقة و حسن الربط و الجمع بين الصور المختلفة ليصنع لوحته الفنية الإبداعية ، فشبه الصعلوك بالذئب و شبه المرأة بالرئم و بيض النعام و الشمس و بالناقة و النخلة ، والإنسان جزء من الطبيعة غير خارج عنها ، إلا أنه العنصر الفعال و الناقل الأساسي لها فهو كوسائل الاعلام في عصرنا.

2-3- الدين:

لقد ارتبط الإنسان ارتباطا شديدا بالدين، فقد كان المنطلق الذي يصدر عنه في أحكامه، بل مصدر المعرفة الغيبية، وتفسير الوجود، وهو المرجع الذي يصدر عنه في وضع القيم، وصياغة النماذج، بل والإجابة على الأسئلة الملحة المتعلقة بالنشأة والمآل، لذلك لا بد أن يكون الدين مصدرا مهما للرموز، فقد نخل منه الشعراء المعاني ونحتوا منه الرموز ليحيلوا بها على قصة، شخصية، أو غيرها ليبرروا اختيارا بعينه، أو يداروا فكرة، أو يخلعوا جمالية معينة من خلال اعتماد الرمز.

كل ذلك كان سببا في العودة إلى التراث الديني والاستفادة منه، ف"نجد ظهور هذه الرموز في القصائد على شكل إشارات أو صور جزئية، لعل ما فيها من إيجابية هو أنها ساهمت في تكسير غنائية التجربة الشعرية عند الشعراء. ثم تواجهنا بعد ذلك تجارب فنية في البناء بدأت تستقر ملامحها الجمالية وذلك ببروز نوع من البناء الكلي للرمز داخل القصيدة"⁶.

2-4- التراث:

لقد ارتبط الأدب عامة بتراث وتاريخ الأمم، فقد شكل التراث التاريخي للأمم أو للإنسانية مادة ثرية استفادها الأدب عامة ودونها، أو جعلها موضوعا له، أو نحت منها رموزه واستمد منها

صوره. فقد كرس الشعر العربي ذلك من خلال لجوء الشاعر إلى توظيف تراثه التاريخي توظيفاً رمزياً يرقى للعمل الإبداعي، وظهر ذلك جلياً في استعمال هذا التراث كمصدر للرموز التي يوظفها في شعره، للإيجاء، أو لتمرير رسالة، أو لترجمة إحساس أو رؤية " إذ بواسطته يتاح له نقل أحاسيسه الوجدانية وتجربته الشعرية " ⁷.

3- المصادر الحضارية للرمز في الشعر الجاهلي:

إن الوقوف على المصادر الحضارية للرموز عند شعراء الجاهلية بشكلها الموسع قد يفتح أمامنا بحثاً يطول الكلام حوله و بالتالي يخرجنا عن المنهج الذي نريده. لذلك سيكون زادنا في هذا المجال الشعر العربي الذي عرض بعض الرموز الحضارية، لأن الاستقراء الوافي يشير إلى أن جملة ما تشتمل عليه القصيدة الجاهلية هو حشد لمواد كثيرة لا تعدم أن تجد فيها فكراً يتصل بحضارة و أدوات و حاجات تباعد عن البداوة المعروفة ⁸

3-1- الرموز المتعلقة بالاقتصاد:

3-1-1- الزراعة:

عرف الإنسان العربي العمل الزراعي ، متجاوزاً في ذلك مع الواقع الطبيعي الذي كان له الأثر البارز في نمو الزراعة وتقدمها، واستمرار الرعي و بقاء الحيوان ، كما كان الواقع الطبيعي العامل الحاسم في استقرار في الأرض أو الانتقال إلى غيرها .

وتعني الزراعة تلك الصلة القائمة بين الإنسان وأرضه من جهة، والإنسان وحيوانه من جهة ثانية. وقد مثلت الزراعة والرعي كلا مترابطين لا يمكن الفصل بينهما لاعتماد الإنسان على الجانبين معاً. فلا حياة للحيوان دون مرعى، و لا حياة للإنسان دون حيوان يستفيد منه ضروريات العيش لتضاف إلى غلال الأرض التي يعتمد عليها في معيشته .

ولم تكن حاجة الإنسان إلى العمل الزراعي وليدة عصور متأخرة فرضتها طبيعة الحياة المتطورة لأن الاهتمام بالعمل الزراعي يرجع إلى أصول تراثية قديمة، أستطاع الإنسان العربي أن يتغلب فيها على صعوبات الواقع والحياة ويتجاوزها بما يكفل له الاستمرار والبقاء. وليس من بحثنا الحديث عن تلك الأصول الموعلة في القدم، ولكن لا بأس إن أشرنا إلى أن الأصول العربية الأولى ترجع إلى ما قبل الميلاد بقرون طويلة .

وقد عرف العرب ما قبل الإسلام التشريعات الخاصة بالزراعة، وحماية الأرض والأشجار وتحديد أسعار البساتين، وشروط البيع. كما اعتمدوا نظام التاريخ لضبط المواسم الزراعية بما يتفق وهطول الأمطار، وأقام أهل اليمن السدود⁹. و اتبعوا الطرق الهندسية في إقامتها والاستفادة منها¹⁰ ، و عنوا بإصلاحها و ترميمها¹¹.

وكل ذلك من أجل البقاء، والحفاظ على الحياة حيث أن مجمل مظاهر الحضارة في اعتقادنا هو تحسين طرق الحفاظ على الحياة.

و لعلها كانت تقام عند مجاري الأنهار أو السيول المتجمعة في الأودية ، والتي عرفت بـ " الأعقة" فحولوا بعضها إلى صهاريج تتجمع فيها مياه الأمطار ، مما جعلهم يفكرون في رفع مستوى الفائدة منها باستخدام نظام الأفلاج في جر المياه و ري الأراضي¹².

لقد استفاد الشعراء من هذه الملمح الحضاري المتعلق بالزراعة بوصفه مصدرا للرموز التي وظفوها في مختلف موضوعاتهم الفنية ، فسد مأرب الذي تحدثت الروايات العربية عن دقته و أهميته أصبح رمزا عند الشعراء للقوة والدقة والإتقان، وكذلك الأفلاج التي لم تغب صورتها عن خيالهم، فهي رمز للحياة والنماء وتغير الحال، أما الجداول فقد اتخذها عبید بن الأبرص رمزا لاستمرار الحياة، و كان ذلك عندما تذكر أهله :¹³.

تذكرت أهلي الصالحين بمحوب فقلبي عليهم هالك جد مغلوب

تذكرتهم ما إن تحف مدامعي كأن جدول يسقي مزارع مخروب

بينما اتخذ الأعشى الجدول الذي يستفيد منه الفلاح رمزا للغزارة والعطاء، و ذلك من خلال قصيدة مدحية : ¹⁴.

و ما فلح يستقى جداول صعينى له شرع سهل على كل مورد
و يروي النبيت الزرق من حجراته ديارا تروى بالآتي المعمد .

أما رمز الحراثة، وإعداد الأرض الزراعية ، فقد استعمله لقيط بن يعمر عندما خاطب قومه منبها، وموقظا لهم من غفلتهم، وقد استعمله رمزا للانشغال بالتعمير وزيادة الرزق والنماء : ¹⁵

و أنتم تحثون الأرض عن سفه في كل معتمل تبغون مزدردا

أما رمز الحصاد فكان في شعر علقمة عندما شبه تخشخص الدروع بتخشخص الحصاد إذا هبت عليه ريح الجنوب : ¹⁶

تخشخص أبدان الحديد عليهم كما خشخشت يس الحصاد جنوب

واشتهرت المزروعات المتنوعة التي صارت مصدرا للرموز التي وظفوها في أشعارهم، و منها الثمار التي تزرع للأكل ومنها المحاصيل التي يستفاد من زرعها لبعض الأمور الصناعية التي تخدم ضرورياتهم. وعد النخيل من أهم الرموز التي استفاد منها الشعراء في تشبيهاتهم.

وإلى جانب النخيل كانت هناك الأشجار المثمرة الأخرى، كالأعناب، والتفاح والرمان، والتين، والكباد، وقد صارت رموزا عند الشعراء . واشتهرت بعض المدن بزراعة الكروم مثل "أثافت" والتي عرفت أيضا بإسم "درنى" و قد شرب فيها الأعشى مع صحبه و قدم لهم من خمرها الوافر والتي صارت رمزا للرخاء والنعيم والسعة: ¹⁷

و إن لنا درنى فكل عشية يحط إلينا خمرها و خميلها

و يرمز الأعشى للرخاء الذي كان ينعم به وسعة العيش والترف بمعصرة للخمر في "أثافت" مما يعطي له من أعناجها، و يقول: ¹⁸

أحب أثافت وقت القطاف ووقت عصارة أعناجها

أما الشعير فرمز للنماء والبركة والوفرة والعطاء فقد ذكره امرؤ القيس بقوله :¹⁹

تلك الشعيرة تسقى في سنابلها فأخرجت بعد طول المكث أكداسا

واستعمل القطن رمزا للنقاء والصفاء تارة، ورمزا ، فيذكر أمية رمز القطن المزروع، وصورته و قد

أعد للباس بعد أن يوشى ويصنع :²⁰

و الطوط نزعه أغن جراؤه فيه اللباس لكل حول يعضد

3-1-2 الصناعة :

لبت الصناعة حاجة الإنسان في ذلك العصر، و امتازت ببساطتها، إلا أنهم أبدعوا فيها، وهذا ما تشهد به الأدوات التي استخدموها و التي عثر على بعضها بعد سبر مواقع الآثار التاريخية و عندما نتحدث عن الصناعة كملمح من ملامح الحضارة، فان ما يهمنا هو الجانب الفني المرتبط بالرموز التي استفاد منها الشاعر العربي في عرض معاناته النفسية، و موضوعاته المختلفة . فأصبحت مؤشرا حضاريا في دراسة هذه الفترة .

فقد اشتهرت الصناعات النسيجية، و المعدنية، و الأواني الخزفية، و الدباغة الجلدية، و الأدوات الحربية . ووجدت لهذه الصناعات سوق عربية رثجة.

واشتهرت المنسوجات القطنية، و الصوفية، و الحريرية، و قد ارتبطت في فترة ما قبل الميلاد برجال الدين و المعبد، واقتصرت بعض أنواع مصنوعاتهما على الكهنة والملوك²¹، و لكنها أصبحت في فترة متأخرة بعد الميلاد خاصة بالقصر أو الملوك، وأصبح لهم نساخ يعملون لحسابهم الخاص ، كما هو في اليمن في القرن السادس للميلاد، فقد أشارت نصوص المسند إلى الحياكة اليمنية²².

وأبداع الصناع في التفنن بالنقوش والرسوم، واستخدموا الأصباغ ذات الألوان المتنوعة، و التي حصلوا عليها من المواد الأولية، والنباتات، والمعادن، والحيوانات .

فقد استفادوا من الأزهار التي انتشرت في مراتعهم، ومن بعض أنواع الثمار، أو قشورها، ومن ذلك الزعفران و"الفوة" الذي يعصر فيستخدم مادة لأعمال النقش والكتابة، وقد أشار إليه الأسود في شعره

ولا شك أن القطن المعد لغزل الخيوط يمر بعملية تنقية خاصة، فأشاروا إلى القطن المندوف و
المحلوج، كما في شعر أوس بن حجر من خلال صورة الناقة: ²³.

علا رأسها بعد الهباب وساحت كمحلوج قطن ترتفيه النوافد
ولم ينس الاعشى الحائك الذي يقوم بالنسيج أو الحياطة فقد وظفه للدلالة على الاتقان، وحسن
المعالجة ²⁴.

يشق الأمور ويحتاجها كشق القراري ثوب الرदन
واشتهرت بعض المناطق العربية بصناعة المنسوجات، فتحدث الطفيل الفنوي عن النسيج العراقي
المرقم وقد وضع فوق الهوادج وهو يرمز إلى علو الشأن إذ لم يكن متاحا لكل الناس: ²⁵

لقد بينت للعين أحدهما معا عليهن حوكي العراق المرقم
ولم تكن الصناعات الجلدية أقل أهمية من الصناعات النسيجية، وقد تمثلت بالنعل الجلدية،
والسيور التي استعملت على شكل أحزمة للإنسان، أو للرحل، أو للهوادج، واستفيد من الجلود
في صناعة الجفان والقراب. وقد استعمل الشعراء في شعرهم الأديم وصناعاته والزخارف المنقوشة
عليه، وقد كان ذلك يرمز عندهم لحسن الرسم كقول علقمة: ²⁶

بأكناف ثمات كأن رسومها قضيم صناع في أديم منمق
كما عرفوا صناعة النعل الجلدية المدبوعة بالقرظ، واشتهر في ذلك السبت اليماني و نعال السبت
استعملت للرمز على القوة المتانة والصبر، كما في شعر عنتره: ²⁷

بطل كأن ثيابه في سرحة يحذي نعال السبت ليس بتؤم

أما الصناعات المعدنية و الخزفية و الحربية، فقد توفرت لها المواد الأولية اللازمة ، كالححاس والذهب و الحديد والقصدير .. وعرفوا كيفية استخراجها و تنقيتها من الشوائب، وعرفت بها مواضع خاصة . وقد عثرت التقنيات الأثرية على بعض الأدوات ، والأمكنة التي قام بها الصهر والتعدين²⁸ .

وعرف صناع الحديد في أوساط المجتمع العربي باسم الأقيان ولعلهم من اشتهروا بالحدادة²⁹ . وكان لهم أدواتهم الخاصة التي لم تغب صورتها عن الشعراء فاتخذوها رموزا لإتقان المعالجة، وحسن السبك فأشار علقمة الى رمز كير القين بقوله³⁰ :

قد عريت حقبة حتى استطف لها كتر كحافة كير القين ملموم

ومن أعمالهم صناعة الحديد وتحويله إلى أدوات يحتاجونها في الحياة، فأشار قيس بن الخطيم إلى الأقيان الذين يصوغون الحديد :³¹ .

وقد رد العزائم في طريف وأقيان يصوغون الحديد

3-2- الرموز المتعلقة بالمعرفة:

3-2-1- الطب :

دخلت الموروثات الحضارية في حياة الإنسان العربي ، وعد الطب من أهم الموروثات العلمية الحضارية، وشكل رقيا في الحياة وكيفية التعامل مع النفس البشرية واستمرارها من أجل البقاء واتقاء الكوارث والأمراض. وإذا كان الإنسان قد فكر بالطرق الناجعة لحماية نفسه و وقايتها من الداء ، فإنه لم ينس الحيوان الذي رافقه في حياته ، فأصبح الطب يمثل حياة متكاملة لحماية الإنسان و الحيوان . فتعامل الإنسان مع البيئة، و اتجه إلى المحيط الطبيعي مستفيدا مما فيه من نبات وزروع ، معتمدا على التجارب ، فأيهما يصيب فهو الصحيح ، و إذا لم يجد ما يشفيه اتجه الى التسليم بتأثيرات أخرى تمثلت بأعمال الكهان و السحرة الذين لعبوا دورا كبيرا في الأمور الطبية . و هذه المكانة الكهنوتية لم تكن إلا نتيجة - تأثيرات موروثية سبقت الميلاد³² .

فقد شاع استخدام الرقي والتعاويذ قديماً، و نسبوا بعض الأمراض إلى الجن والعفاريت فاستخدم السحرة الطرق الخاصة و الأدوية المركبة و التعاويذ المتعددة لصد هجماتها³³، و بتأثيراتهم و أساليبهم استطاعوا ان يوهمو الناس بصحة أعمالهم في بعض الأحيان، مما ثبت مكانتهم الاجتماعية.

و حديثنا عن الموروثات الطبية لا يعني أن المجتمع يعيش بحالة من السذاجة الفكرية، بقدر ما هي موروثات حضارية تمسكت بها المجتمعات قديماً، وبقيت آثارها حتى يومنا هذا. لذلك لا بد من الحديث عن الجانب الثاني المتمثل في استخدامهم الطرق الطبية التي نعدّها علمية قياساً بعصرها، وقد أثبتت جدواها في كثير من المعالجات حتى الآن، و هو ما نسميه بالطب الشعبي .

ومن الأطباء ابن أبي جورية التميمي، ورجل من تيم الرباب يقال له: ابن حديم، وقد ضرب فيه المثل في حذقة الطبي، فأصبح رمزاً للشفاء والاستطباب كما في قول أوس عندما خاطب جماعة أخذت معزاه:³⁴

فهل لكم فيها إلى فإنني طبيب بما أعيا النطاسي حذيماً

ولعل النطاسي كان طبيباً للملك النعمان بن المنذر، فكان أيضاً رمزاً للصحة وفي ذلك يقول الريح بن زياد :³⁵

فابرق بأرضك يا نعمان متكئاً مع النطاسي يوما و ابن تغويلا

واهتم العرب بالطب البيطري، وأولوه اعتناء خاصاً باعتبار الحيوان من الضروريات التي لا يمكن إهمالها أو التخلي عن فوائدها ، فتركها عرضة للإمراض يعني الإخلال بأحد مستلزماتهم الحياتية .

و كان لبيطرة الخيل و الإبل مكانة بارزة ، فعرفوا طرق مداواة الفرس حتى تضمّر، وكثرت الإصابة بمرض الجرب، فعالجوه بالملح والقار، أو بطبخ بعض المواد و مزجها مع بعضها ، كصورة عبد الله بن سلمة الغامدي :³⁶

ولقد أداوي داء كل معبد بعينه غلبت على النطيس

إن صورة الحيوانات - الفرس و الناقة و الجمل - المطلوبة بالقار و الهناء و القطران ، لم تغب عن تشبيهات الشعراء الفنية فاستفادوا منها رموزا تساعد في عرض حالاتهم النفسية أيضا .
أما مرض الوجي³⁷ ، فقد وجد الأعشى فيه صورة ثقافية استفاد منها في عرض تجربته الذاتية مع صاحبته هريرة، فجعل من الوجي رمزا لمشيتها المتأنية وحركتها الخفيفة، فجعل من مشيتها أشبه بمشي الفرس المصابة بهذا المرض³⁸ :

غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشي الهويني كما يمشي الوجي الوحل

3-2-2- الفلك :

بحكم ارتباط الإنسان بأرضه، وحاجته لمعرفة الأوقات والاتجاهات، والفصول، وحالات الطقس، وما يدل عليها ، فإنه اهتدى- تبعا للحاجة، والتجربة - إلى معرفة منازل السماء المختلفة. والنجوم وحصر مطلع كل منها أو غيابه و في أي يوم يعود، كما استدل من خلال النجوم و الرياح على سقوط الغيث مهطله أو مزنه، و في أي أرض سيدركه ذلك .
فعرف هذه القضايا عن طريق مساءلته الكواكب الثابتة و منازل القمر، وعن طريق بعض أنواع النجوم التي جنبتهم الوقوع في مغاور الصحراء.

و معرفتهم هذا العلم لم تكن إلا ثقافة موروثه استطاعوا التعمق فيها حسب مقتضيات عصرهم، و ترجع أصولها إلى ما قبل الميلاد عندما ارتبطت بحياتهم الدينية و معتقداتهم الروحية، و أصبح أمر التوقيت وتثبيت الأعياد، وأوقات العبادة من واجبات رجال المعابد و الكهان.

إن الرموز المتعلقة بأمور الفلك، أصبحت ملمحا حضاريا استفاد منه الشعراء في عرض تجاربهم و تصوير حالاتهم النفسية، وموضوعاتهم المختلفة في الكرم والرثاء، و المديح ..وقد أشار الشعراء إلى هذه الألفاظ الكونية من فلك وكواكب، و نجوم، و بعض أنواعها مثل السهيل و الثريا ..، ودار حول بعضها المعتقدات و العبادات التي تجعلها نشير إلى بعضهم كان يرمي من صورته الفنية غرضا روحيا مقصورا و خاصة إذا كان من أصحاب الأديان ، أو مطلعا عليها . و بعضهم لم يكن غرضه

منها إلا التشبيه أو الوصف أو التقليد الفني الذي سار عليه الشعراء في عرض صورهم فقد ذكرت المعاجم أن لفظة الالاهة سميت بها الأصنام بمعنى الآلهة، فاعتقدوا بعبادتها، وقيل الألهة هي الشمس أو الهلال، لذلك فالأعشى عندما مدح أحد أصحابه جعل الذين يتوجهون إليه كأنهم يتوجهون إلى عبادة الهلال :³⁹

اريجي صلت يظل له القوم ركودا قيامهم للهلال

وعبد بعض العرب كوكب الشعري خاطبهم تعالى بقوله : و أنه هو رب الشعري⁴⁰ ، و نسخوا حوله الأساطير التي اعتقدوا بها ، وجعلوا بعض التفسيرات لها ولمسمياتها .

لقد اتصلت الصورة الفلكية بالحالة النفسية التي يعيشها الشعراء وبالموضوعات المتعددة التي تطرقوا لها، فأصبحت بروج السماء ومنازلها المختلفة صورا ثقافية استمد منها الشعراء تشبيهاتهم.

ومن هذه البروج العقرب، والنثرة، و جبهة الأسد، وقد كانت عندهم رمزا للكرم والشجاعة والإقدام، فعندما هجا الأسود بن يعفر أحد الرجال قال :⁴¹

و لدت بحادي النجم يحرق ما رأى و بالقلب قلب العقرب المتوقد

والفرق و الفرقدان و بنات نعتي، فيقول عبید واصفا حالته النفسية :⁴²

فنيث و أفناني الزمان و أصبحت لداتي بنو نعس و زهر الفراق

و كذلك الجوزاء فقد استعملها علقمة للدالة على رحلته قائلا :⁴³

و قد علوت قتود الرجل يسفني يوم تجيء به الجوزاء مسموم

الهوامش :

- 1 - ابن منظور، لسان العرب، دار لسان العرب، بيروت، باب الزاي، مجلد5، ص356-357.
- 2 - الجاحظ البيان والتبيين: ج1 ص: 07 نقلا عن: درويش الجندي، الرمزية في الأدب العربي، دار النهضة، مصر.
- 3 - السيد أحمد الهاشمي، جواهر البالغة في المعاني والبيان والبديع، دار الكتب العلمية ط ؛ 06 ص : 277.
- 4 - علي الغريب محمد الشناوي ، الصورة الشعرية عند الأعمى التيطلي ، ط1، مكتبة الآداب ، القاهرة ، 2003
- 5 - شايف عكاشة، مقدمة في نظرية الأدب، ص: 99.

- 6 - آمنة بلعلي، أثر الرمز في بنية القصيدة العربية المعاصرة، دراسة تطبيقية ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ص: 35.
- 7 - عثمان حشلاف، التراث والتجديد في شعر السيّاب، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر، ص: 15.
- 8- إبراهيم السامرائي ، مقدمة في اللغة و الحضارة، مجلة كلية الآداب، العدد 24، 1989 ص 483
- 9- ينظر: جواد علي ، المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العالم للملايين، بيروت، 1987، ص 615 ، 616 .
- 10- ينظر : محمد الأكوخ الحوالي، اليمن الخضراء مهد الحضارة، مطبعة السعادة، 1981 ، ص 271 .
- 11- ينظر : الهمداني، الاكليل، تحقيق محمد الأكوخ الحوالي، دار الحرية للطباعة، 1977، ص 135 - 138 .
- 12- الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ط1، المطبعة الخيرية، مصر، ص 87/2 مادة (فلج) .
- 13- عبيد بن الأبرص، الديوان ، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت، (د ت)، ص 37.
- 14- الأعشى، الديوان، تحقيق محمد محمد حسين، المطبعة النموذجية، القاهرة، (د ت)، ص 193 .
- 15- لقيط بن يعمر الإيادي، الديوان، تحقيق إبراهيم العطية، وزارة الإعلام العراقية، بغداد، ص 37
- 16- علقمة الفحل، الديوان، تحقيق لطفي الصقال ودريّة الخطيب، دار الكتاب العربي، حلب، 1969، ص 45
- 17- المصدر السابق ، ص 177
- 18- الأعشى، الديوان، ص 173
- 19 - امرؤ القيس، الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ص 461
- 20- المصدر السابق ، ص 352
- 21- ينظر: وليد الجادر ، الحرف و الصناعات اليدوية في العصر الآشوري المتأخر، مطبعة الأديب، بغداد، 1972، ص 51، 43.
- 22- ينظر : جواد علي ، مرجع سابق، ص 598/528 .
- 23- أوس بن حجر، الديوان، تحقيق محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، 1982 ص 66.
- 24- الأعشى، الديوان ، ص 25.
- 25- الطفيل الفنوي، الديوان ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ص 74 .
- 26- علقمة الفحل، الديوان، ص 128.
- 27- عنتره بن شداد، الديوان، تحقيق محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، (د ت)، ص 212.
- 28- ينظر: جواد علي، مرجع سابق، ص 193/1، 194.
- 29 - الزبيدي، تاج العروس، 316/9 مادة "قين"
- 30- علقمة الفحل، الديوان، ص 54.
- 31- قيس بن الخطيم ، تحقيق إبراهيم السامرائي، أحمد مطلوب، دار المعاني، بغداد، ص 52
- 32- ينظر: جورج كونتنو، الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، ترجمة سليم التكريتي وبرهان التكريتي، مطبعة دار الحرية، بغداد، 1979، ص 488.
- 33- ينظر : طه باقر ، مقدمة في أدب العراق القديم، مطبعة دار الحرية، بغداد، ص 209 .

- ³⁴ - أوس بن حجر، الديوان، ص 111
- 35- الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الثقافة، بيروت، 122/17 (ليست في شعره)
- ³⁶ - المفضل الضبي، المفضليات، تحقيق أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون، مطبعة دار المعارف، مصرن ص 107
- 37- يصيب مرض الوجي قدم أو حوافر الحيوان ، فيعجزها عن المشي إلا بكثير من العناء و المشقة، ينظر الزبيدي 383/10 مادة "وجي"
- 38- الأعشى، الديوان، 2/6 ص 55
- ³⁹ - المصدر نفسه، 44/1 ص 9
- ⁴⁰ - سورة النجم ، آية : 49
- ⁴¹ - الاسود بن يعفر، الديوان ، تحقيق حمودي القيسي، مطبعة الجمهورية، بغداد، ص 34
- ⁴² - عبيد بن الابصر، الديوان ، ص 71
- ⁴³ - علقمة الفحل، الديوان ، ص 73